

## فخر المدارس الحرة: التربية والتعليم بقسنطينة

السيدة: زهور ونيسي  
(وزيرة سابقة)

اليوم وأنا ألبى فخورة دعوة الأخ الكريم محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية للمساهمة في مواضيع العدد الخاص من مجلة المجلس الغراء، والمخصص للاحتفاء باليوبيل الذهبي لثورتنا المجيدة.

لعلني وأنا أفضل ذلك، لا حق لي في الادعاء أنني سأساهم ببحث تاريخي يليق بالمناسبة بقدر ما أجدني أكتب مقالا أو على الأصح شهادة حية لامرأة مرت ذات يوم عبر مدارس التربية والتعليم التي أسسها ابن باديس، هذه المؤسسات التي أنشئت كرد فعل طبيعي ووطني ضد تلك الهجمة الشرسة التي خطط لها المستعمر ضد كل ما هو ثوابت وطنية من قيم روحية وثقافية ولغوية قصد التأسيس لإبادة هوية أمة وانتماء شعب، هذه الهجمة التي بدأت منذ احتلال الوطن سنة 1830 بشتى الوسائل والأساليب ولا تزال آثارها إلى اليوم.

ولا يخفى على أحد أن التعليم هو أس من الأسس الأولية لبناء حضارة الإنسان في كل مكان، وبدونه لا يمكن لهذا الإنسان أن يحقق إنسانيته ككائن حي متميز عن غيره من الكائنات الحية بعقل يفكر ويبتكر.

والإنسان في الجزائر إبان فترة الاحتلال حرم من هذا الأساس الهام حتى يسهل انقياده واحتلاله وتبعيته، بل إن الاحتلال في الجزائر كان يهدف إلى القضاء نهائيا على إنسان هذه الأرض بوسائل الإفناء والزوال المختلفة بدءا بحرمانه من أبسط ضروريات الحياة ذاهبا في هذا الهدف إلى العمل على

إقصاء ما تبقى من هؤلاء الأهالي إلى غياهب الصحراء مثلهم في ذلك مثل الهنود الحمر في قارة أمريكا، على أن يستبدل بهم شعباً آخر جديداً يتحكم في مقدرات البلد انطلاقاً من شماله.

قضية وجود أو لاوجود، كانت بالنسبة للاحتلال ومن ذلك يسجل بعض المؤرخين الغربيين أن الاحتلال للجزائر ضيع على الجزائر في وجوده الجغرافي فحسب أكثر من ثمانية ملايين نسمة في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

إن أهداف الاحتلال الاستعمارية لم تتمثل فيما ذكرنا فحسب، بل رمت أيضاً إلى وضع استراتيجية سياسية واسعة النطاق في الزمان والمكان، تعتمد قبل كل شيء ولأبد على بقاء الهيمنة الاستيطانية بسيطرة الحضارة الغربية، وبالتالي القضاء على القيم الروحية للشعب واجتثاث أصول هذه القيم، كونها من أهم العوامل والمظاهر العاطفية تنمي وتبقي على الضمير الحي للأمة وعلى استمرار مقاومته وتصديه للاحتلال وكفاحه لاسترداد السيادة والهوية والحرية.

وقد واجه الاستعمار هذه المقاومة الشعبية، وهذا الحس النضالي للشعب بالجوء إلى وسائل خاصة ذات طابع إنساني تطويري حسب اعتقاده القصير النظر، تتمثل: أولاً في سياسة الاندماج خاصة في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي، حيث نصت معاهدة الرابع من شهر جويلية 1830 على:

أولاً: "أن ممارسة الديانة (المحمدية) تبقى حرة "

ثانياً: إعلان وسن نظام التعليم العام والذي اقتصر على مجموعة قليلة من المدارس، ثم أنشأت مدرسة لتخريج المعلمين سنة 1865 مع ضرورة توفير شروط خاصة لإعداد إطارات تحسن معرفة الوسط الجزائري - لتبقى نسبة المسلمين بين هذه الإطارات ضئيلة لا تزيد في البداية على خمسة معلمين.

وكذلك كان الحال بالنسبة للأطوار الأخرى من التعليم، ليبقى هدف المستعمر من هذه العملية ليس الرغبة في تعليم الجزائريين بل إيجاد وسائل ومشاريع طويلة المدى للتمكن من فرض الهيمنة الثقافية والفكرية والحضارية على الشعب الجزائري، إن الاستعمار يرى أن عقل الأهالي ينبغي تكوينه حسب ما يريده هو وأن ذلك لا يتحقق إلا عن طريق التعليم.

نتيجة لذلك وغيره بدأت الحركة الوطنية تنمو وتزدهر وتتشعب كرد فعل طبيعي وشرعي لمواجهة أساليب الاستعمار الجهنمية في إبادة شعب والقضاء على أمة.

وداخل هذه الحركات الوطنية كانت نهضة ابن باديس التربوية والتعليمية حركة وطنية تعتمد أسلوباً متميزاً يتمثل في إنشاء و تأطير المؤسسات التربوية والتعليمية بتمويل من الشعب بعد تجنيد وتعبئة من العلماء والمتعلمين وعلى رأسهم ابن باديس.

وإن اتفقت هذه الحركات الوطنية جميعاً في وحدة الهدف الجزائري وحريتها وسيادتها، إلا أن نهضة ابن باديس اعتمدت في منهجها على الفكر والعلم والتربية لكل المجتمع، على النفس الطويل والمدنيين البعيد والأبعد للوصول للغاية، اعتمدت الحركة على الأصعب والشاق من جوانب التصدي للاستعمار الاستيطاني بأساليب وخطاب تغلغل أكثر في عمق الإشكالية الحضارية، بتبني منهج تنوير المواطن والقضاء على أميته وجهله وإحياء وتجديد تراثه الحضاري بتطهيره من التراكمات والتشوهات التي علقت به بفعل السياسة الاستعمارية على مدى أكثر من قرن من الزمن.

كانت خطة حكيمة لتهيئة المجتمع للمواجهة الصحيحة المضمونة النجاح عبر فعاليات نهضة ثقافية تعليمية تربوية إصلاحية متناغمة قوامها الإنسان، الرجل والمرأة معا.

لقد كان ابن باديس صاحب هذا المشروع الحضاري الكبير يجمع في شخصه مميزات شخصيتين إصلاحيتين عربيتين، كان لهما باع طويل في حركة النهضة العربية في القرن العشرين:

شخصية جمال الدين الأفغاني الناثرة وشخصية محمد عبده الهادئة؟ لكن ابن باديس استطاع أن يحقق نسبة نجاح أكثر تأثيراً في مهمته النهضة التي اضطلع بها، وذلك باعتماده القاعدة المحلية الشعبية التي هي شعبه وبلاده الجزائر نظراً للأوضاع الخاصة التي كانت تمر بها، بينما انطلق الأفغاني وعبداه إلى أهداف قومية عن طريق نخبة لا قاعدة شعبية لها.

لقد جمع ابن باديس في حركته الوطنية نهضة وتجديداً بين مختلف اهتمامات العصر والظرف الذي كانت تعيشه البلاد، والتي كانت تشغل بال وضمير الشعب مثل الحرص على الحفاظ على القيم الروحية والأخلاقية الصحيحة، والتي ما فتئ الاستعمار يعمل بجميع الوسائل وعبر عقود من الزمن لتشويهها والقضاء عليها لأنها الثوابت والأسس التي تشكل الهوية والوحدة الوطنية وتنتمي أواصرها، وتعمل على تنميتها وتميزها عن هذه المشاريع الحضارية الوافدة البديلة.

ومن هذه الاهتمامات والانشغالات:

1- تنقية العقيدة مما أدخل عليها من شعوذة وخرافات وتشويهات.

2- العمل على بعث وإحياء ونشر اللغة العربية عبر سياسة التربية والتعليم، بعد أن عمل المستعمر على منعها وإهانتها واستبدال الفصحى بلهجة دارجة ركيكة وضعت لاستعمالها في المدارس الرسمية حتى لا تنافس اللغة الفرنسية وحتى يعرض عنها أبناء الجزائر و يقبلون على الفرنسية!

3- بعث تاريخ الأمة وأمجادها، مما يعيد الثقة للأمة بنفسها وتاريخها عبر مناهج تربوية جديدة متطورة تواكب وتتعامل دون عقد مع الحضارة الوافدة، مستفيدا في كل ذلك من تلك العلاقة العملية التي تربطه ببعض المعاهد العربية ومنها جامع الزيتونة بتونس.

وفي أول مدرسة أسسها ابن باديس بدعم مادي ومعنوي من الشعب "جمعية التربية والتعليم الإسلامية" بقسنطينة سنة 1931 كان لي وللكتيرين والكتيرات من أبناء المدينة صبيان وصبايا شرف التلقي لأول مرة أبجديات الحرف العربي ومختلف المعارف والثقافة العامة، وفي هذه المدرسة كنت وأخواتي نتعلم ساعات النهار ليأتي أبونا مع أباء الآخرين مثله لمحو أميتهم بالدروس الليلية، ثم لا ينسى والذي أيام العطل ليتردد على المدرسة متطوعا يرقع ما تلف في جدرانها وفصولها وهو البناء الماهر!

أليست المؤسسة مدرسته ومدرسة بناته وأبناء الشعب البسيط المتعطش لمعرفة لغته وتاريخه المحروم منهما عنوة و قسرا وقهرا من طرف المحتل؟ ليسجل اسمه كعضو مؤسس للمدرسة في مدينته المحروسة، ويطلق عليه أحدهم فيما بعد وهو الشيخ العلامة العباس بن الشيخ الحسين لقب "أبو النهضة"

أليست نهضة أن تتحدى كل الأفكار المحيطة من حولك وتعارضها؟ وتعلن رفضك لها، وتترك بناتك الصبايا يخرجن كل يوم للمدرسة تحت أنظار و دهشة واستياء الآخرين؟

ولقد كان برنامج التربية والتعليم عند الإمام ابن باديس سيصل إلى أهداف بعيدة في تعليم البنات، لولا أن المنية عاجلته وهو في عز عطائه، لقد راسل وقتها أحد المعاهد الخاصة في دمشق بالمشرق العربي وكانت مديرة له السيدة عادلة بيهم الجزائري حرم النجل الأكبر للأمير عبد القادر الجزائري، الأمير محمد، طالبا منها قبول بعثة من بنات مدرسة التربية والتعليم لإتمام دراستهن الثانوية مثلن في ذلك مثل تلاميذ المدرسة الذكور الذين كانوا يلتحقون بجامع الزيتونة بتونس أو غيره من المعاهد بالدول العربية الأخرى ولكن الأجل حال بينه وبين ذلك لتفتك المرأة الجزائرية بعد ذلك حقها في التعليم بعد خوضها معركة الحرية بجدارة فائقة.

ولعل التربية والتعليم عند الإمام ونهضته كحركة وطنية لم تكن لتكتفي بأسلوب التعليم النظامي عبر المدارس التي أنشأتها، وما يتطلب ذلك من برامج وبحث تربوي وبيداغوجيات عصرية بل كانت تتجاوز ذلك إلى تلك الدروس التي كانت تعطى لفئات كثيرة من أبناء الشعب عبر المساجد وبين أوقات الصلاة.

ومن ذلك تلك الدروس المنتظمة في الوعظ والإرشاد والتربية المدنية والأدب والتاريخ الإسلامي، والتي كانت نساء مدينة قسنطينة يتلقينها في الجامع الأخضر على يد الإمام نفسه، وينشرن شذاها ونداها وفوائدها بين النساء الأخريات ممن لم يكن يسمح لهن بالخروج من البيت.

لقد كانت والدتي - وعلى سبيل المثال لا الحصر - تحفظ الكثير من الآيات، والأحاديث، والأشعار، خصوصاً شعر الإمام "الشافعي" وهي الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب.

ولم نكن نعلم أنا واخوتي ونحن صغار أن والدتنا أمية ونحن نسمعها تقرأ معنا عن ظهر قلب ما كان يلقن لنا بالمدرسة من دروس ومحفوظات وتصحح لنا ما كنا نخطئ فيه.

لقد كانت مدرسة التربية والتعليم نموذجاً إيجابياً "وثرمة أولى" لطموحات ابن باديس وحركته النهضة تجاه الأجيال القادمة، ورهانا فاق كل الرهانات الأخرى لأنه اعتمد على الواقع الاجتماعي والفكري دون تهريج، واستمد عنفوانه من آمال وإرادة وقدرات الشعب، وقناعاته بضرورة التغيير الجذري للذهن والقناعات الجامدة.

لقد سميت مدرستنا كذلك لأن هدف التربية منها يسبق هدف التعليم. وحتى يتماشى مع عادات المجتمع وفكره المحافظ آنذاك تجاه تعليم المرأة.

لقد كانت التربية الوطنية وتعميق الحس الوطني أول مهام المدرسة، بحيث أصبحنا - وحتى ونحن تلاميذ أطفال - محل متابعة من طرف الشرطة بالمدينة، كلما أقمنا حفلاً بمناسبة وطنية تاريخية أو دينية، أو قمنا بتمثيل مسرحية، أو أنشدنا أناشيد وطنية تهز المشاعر وتحمس الحاضرين من أولياء التلاميذ وغيرهم من المناضلين، إن الإدارة الاستعمارية وفي مثل هذه الحالات لم تكن لتفرق بين الصغير والكبير وكثيراً ما أغلقت المدرسة أياماً عقاباً لنا تلاميذ وأساتذة على هذه الأنشطة.

وقد كنا إضافة إلى تلك الفعاليات الثقافية والرياضية والكشفية نتلقى مختلف المواد العلمية والإنسانية بجانب المواد الدينية والتاريخية، حتى اللغة الفرنسية والتدبير المنزلي ومبادئ الموسيقى، مثلنا في ذلك مثل المدارس التابعة لقطاع التربية الذي تشرف عليه الإدارة الفرنسية.

كنا نجلس نحن البنات جنباً إلى جنب مع الأولاد دون أية عقدة أو فكر مسبق، أو سوء ظن، كانت القيم تحكم الجميع، وتسيرهم وتوجههم وليس القهر أو طقوس التحريم.

كان يتناوب على الأقسام والفصول أساتذة ومعلمون شباب، مناضلون مؤمنون بقضية الوطن، تخرجوا على يد الأستاذ الإمام ابن باديس نفسه، ومنهم من تخرج من جامع الزيتونة وغيرهم من المعاهد العربية وهم قلة.

ومن هؤلاء محمد الصالح رمضان، السعيد بن حافظ، عبد الحفيظ صويلح، الشهيد أحمد بوشمال، أحمد حماني، الصادق حماني، أحمد الجموعي، الصادق عبد الوهاب، الشهيد أحمد رضا حوحو وغيرهم.

ومن السيدات: حورية عريبة، نعاة ونيسي، وعقيلة كحلوش، وهن الرائدات الأوائل في العمل التربوي ومهمة التدريس على مستوى الوطن. دون أن ننسى شيخ المجاهدين الذي إلتحق بثورة التحرير وهو في الستين من العمر " محمد بن عابد الجيلالي " هذا الرجل الذي زرع فينا روح الوطنية عبر أناشيده في كل المواضيع والتي كان يلحنها لنا أستاذنا في الموسيقى العبقري الشيخ "عبد القادر التومي" بكمائه الجميل المبطنة علبته بالمخمل الأحمر وهو ينمي مواهبنا الفنية وتذوقنا للموسيقى وعشقنا للنغم عبر كل محفظة يقوم بتلحينها.

ومن تلك المحفوظات:

جزائر العزّ اسلمّي      دون بلانك دمي  
هذا فؤادي وفمي      وانتظري كلي غدا  
بنا الجزائر تعود      كما تبدت للوجود  
أفقا يغض بالسعود      ويملا الأرض ندى

لاحظوا هذه النظرة الاستشراقية لجزائر الغد، جزائر الحرية والسيادة، وكذلك النظرة الانسانية لقضايا الإنسان، ويملا الأرض ندى.

أستاذنا "محمد بن العابد" لم يكن حسه الحضاري في تعليمنا يقتصر على قضية الوطن الأساسية وهي الحرية ؟ بل إنه من خلال ألعابنا كان يضع لنا أناشيد تنتقد الأناشيد الفرنسية، وهو يستمع للبنات يلعبن لعبة "الحبل" ويغنين تلك الأغنية الفرنسية المعروفة "j'aime la galette" ليقول معبرا على لسان البنت الجزائرية واصفا أغنيته الجديدة للحبل:

طلوعي سناء      وخلقِي ضياء  
وفعلي بناءً      وفضلِي شَمَلْ  
ولست بقفزي      أغني لِحُزِي  
فأدعو لِعِزِي      سهام المُقل

"رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" صدق الله العظيم.

وتخرجنا من هذه المدرسة بشهادة التعليم الابتدائية فقط، لكنها بمحتواها المعرفي والعلمي في مختلف المواد كانت تعادل دون مبالغة ما يتحصل عليه اليوم طلبة الثانوي أو حتى التعليم الجامعي، لقد كان

المشرفون على تأطيرنا بالتدريس والتربية يختصرون الزمن من أجل الجزائر يحدهم في ذلك إيمانهم بأن الإنسان هو رأس المال الحقيقي لبناء الأوطان.

إن مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة كانت لبنة نموذجية لبناء شامخ من المؤسسات التعليمية موزع عبر ربوع الوطن، ومشروع حضاري متكامل جاء كرد فعل لمخطط الممارسات التعسفية تجاه الأمة.

إن الوطنيين في الجزائر ومنهم ابن باديس صاحب هذا المشروع الحضاري لم ينسوا أبدا استراتيجية الاستعمار في النيل من هوية الأمة وثوابتها، ولم ينسوا أيضا الملك "لويس فليب" عندما استقبل الأسقف "دوبوش" لتدشين النشاط التبشيري بالجزائر بعد الاحتلال مباشرة حين قال:

"لا يكون العرب فرنسيين إلا عندما يصبحون مسيحيين ويتوقف ذلك علينا معا.."

ثم مستطردا:

"لنُعد الحياة إلى إفريقيا"

لأن إفريقيا وفي جبينها الجزائر في رأي الملك والأسقف، لا تكون في عداد الأحياء إلا بالمسيحية!

كما لا ينسى الجزائريون قولة الجنرال "دوبرمون" وهو يدخل منتصرا الجزائر مصرحا للقساوسة المرافقين له في حملته:

"إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا"

ليكون هذا التصريح فيما بعد، بمثابة الأمر من أجل تحويل المساجد والأوقاف إلى كنائس وإلغاء شرعية الأعياد الإسلامية، ولعل جامع "كتشاوة" دليلا حيا على ذلك؟ ألم يحول إلى كاتدرائية مباشرة بعد احتلال الجزائر: ليقول أحد علماء الجزائر وهو الإمام "مصطفى بن الكبابطي" بألم كبير:

"لئن تحولت العبادة في مسجدنا، فإن ربه لن يتحول في قلوبنا.."

وأخيرا: إنها ملامح ذكريات امرأة كان لها شرف المرور والانتماء والتخرج من مدرسة التربية والتعليم، لتصبح يوما ما بعد افتكاك الحرية والسيادة، وزيرة للتربية والتعليم، ملامح ذكريات شهادة تغلب عليها المشاعر أكثر من منهجية البحث العلمي، شهادة لعلها تكون مؤشرا لضرورة البحث العلمي في هذا المجال النضالي الحضاري الهام من تاريخ الأمة.